إرهاصات عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني في التراث البلاغي
أبو هلال العسكري نموذجا

د. مشاري عبد العزيز الموسى
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة الكويت

الملخص:

تسلط هذه الدراسة الأضواء على عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني لدى جاكبسون وتبحث عن إرهاصاتها في التراث البلاغي العربي وتعيد تصنيف تلك الإرهاصات بما يتناسب مع كل عنصرٍ متخذةً أبا هلال العسكري وكتابه الصناعتين نموذجا. وتكمن أهمية الدراسة في أنها ترسم ملامح مرجعية لغوية حضارية عربية أثناء تعاملنا هذه العناصر خاصةً، وهو الأمر الذي لم يتناوله الباحثون العرب بالدراسة من قبل، وذلك على الرغم من الاهتمام الملحوظ الذي نراه في الدراسات العربية مؤخراً بالبحث عن إرهاصات النظريات والمناهج الحديثة بشكل عام ومعطياتها في التراث العربي، غير أن هذا الاهتمام الكبير لم يتناول عناصر جاكبسون لسيميولوجيا التواصل اللساني عند أبي هلال العسكري على وجه الخصوص، ومن هنا تمثل هذه الدراسة إضافة بحثية جديدة.

كلمات مفتاحية:

سيميولوجيا، رومان جاكبسون، البلاغة العربية، أبو هلال العسكري.

إرهاصات عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني في التراث البلاغي:

أبو هلال العسكري نموذجا

مدخل:

السيميولوجيا مصطلح أطلقه رولان بارت وهو باللغة الإنجليزية semiology وهي كلمة مركبة من كلمتين semeion ثم logos يعنيان علم الدلالة أو علم العلامة، يشمل هذا العلم العلامات التواصلية بمختلف أنواعها، لسانية كانت أو غير لسانية.[١] ومن هنا جاء عنوان دراستي هذه عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني، ليخرج بهذا أنواع التواصل غير اللساني. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا فرق بين ما نحن بصدده وهو السيميولوجيا وبين مصطلح السيميوطيقيا، الذي لا يقل عن مصطلح السيميولوجيا شيوعاً، فكلا المصطلحين له دلالة واحدة، و"يعكسان مفهوما واحدا مع اختلاف مصدر التسمية" ما بين الدراسات الإنجليزية ونظيراتها الفرنسية.[٢] ومن ثم يتضح أن مفهوم السيميولوجيا مفهوم واسع يبحث في العلامات التي تخبر شيئاً عن الإنسان في إطار حياته الاجتماعية، فلباس الإنسان وإيماءاته الجسدية وكلامه كل ذلك عبارة عن وجوه متعددة تؤدي وظيفة اجتماعية وتحمل دلالات ومدلولات ويبعث الإنسان من خلالها رسالة لغيره من الناس، فهي نوع من تواصل الإنسان مع غيره. هذا التواصل الإنساني، كما يرى سعيد بنكراد، "بؤرته مجموع ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية التي تستوطن الذات... وتستوطن محيط هذه الذات أيضا".[٣] ومن هذا يظهر أن السيميولوجيا تتناول التواصل بأشكال مختلفة، منها التواصل اللساني. ينطلق التواصل اللساني في السيميولوجيا من أن النص، كنظام علامات يعبر عما في نفس الإنسان من أفكار ومشاعر، عبارة عن رموز يبعث بها صاحب النص إلى متلقيه سمعاً أو قراءةً، ويحاول متلقي النص فك هذه الرموز بناءً على قوانين لغوية تواضعت عليها جماعة إنسانية.

احتل الجانب التواصلي في العملية اللغوية اهتماما خاصا لدى عدد من المناهج الحديثة، كتحليل الخطاب والتداولية. والكلام وسيلة واحدة من وسائل التواصل المختلفة المحيطة بالإنسان كالإشارة والرسم والإيماء، غير أن الكلام يُعتبر من أهم تلك الوسائل. والمتأمل للتراث اللغوي العربي، نحواً كان أو بلاغةً، يعلم أن العلماء العرب كانوا يدركون أن الكلام لا يمكن أن يُفصل بمعزلٍ عن دوره الاجتماعي المتمثل في التواصل. وإلى هذا يشير عبد الهادي الشهري في كتابه إستراتيجيات الخطاب: "تنبه [العلماء العرب] إلى أنه لا يوجد الكلام، أصلاً، إلا منطوقا في سياق تواصلي اجتماعي، يؤيد ذلك اشتراط النحاة حصول الفائدة ليستحق الملفوظ تعريفه بأنه كلام."[٤] الفائدة تعني بطبيعة الحال ضرورة وجود مخاطبٍ ينجح المتكلم في إيصال فائدةٍ له في كلامه. فالفعل التواصلي مرتبطٌ ارتباطا وثيقا بالمجتمع، "ولا يمكن أن يُدرَس التواصلُ منفصلاً، وإنما لا بد من دراسته مع أخذ ما يحدثه على مجتمع البشر من أثر في عين الاعتبار".[٥] ومن ثم لنا أن نقول إن الفعل التواصلي اللغوي هو فعل ملازم للإنسان في أي مجتمع في أي زمان ومكان، غير أنه يجب علينا هنا التفريق بين شيئين، أما الأول فهو الفعل التواصلي على أنه طبيعة بشرية، وأما الثاني فهو إدراك وجود هذا الفعل التواصلي. وإن كان الفعل التواصلي مرتبطا بطبيعة الإنسان، فإن الإدراك مرتبط بمدى نمو فكر الإنسان.

التواصل لدى القدماء:

المتفحص لتعريفات البلاغة لدى القدماء يجد أنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتواصل. فالجاحظ عندما تحدث في كتابه البيان والتبين قال: "وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارةُ أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيانُ الذي سمعتَ الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. والبيان اسمٌ جامعٌ لكل شيءٍ كشف لك قناعَ المعنى، وهتكَ الحجابَ دون الضمير، حتى يفضي السامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصولهِ كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنسٍ كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنها هو الفهم والإفهام، فبأي شيءٍ بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع".[٦] والبلاغة في مضمونها عند الرماني لا تخرج عن إيصال المعنى، يقول: "أما البلاغة فهي على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط... فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن الكريم، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس... وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ".[٧] فالرماني في تعريفه للبلاغة يرى أن الكلام لا يكون بليغا إلا إذا كان ذا مزيتين، أما الأولى فهي قدرة الكلام على إيصال المعنى، وأما الثانية فهي تقديم المعنى في أحسن لفظ. الرماني هنا يفرق بين لغة التخاطب العادية وبين اللغة الأدبية، فلغة التخاطب العادية تكتفي بمزية واحدة وهي إيصال المعنى، ولا يشترط فيها أن تكون بأحسن لفظ. وهذا ما يؤكده أبو هلال العسكري بقوله: "وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضُهُ خلقا لم يُسمَّ بليغا وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى".[٨] وعندما عرف العسكري البلاغة في كتاب الصناعتين، ذكر في أحد تعريفاته لها أنها "من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه... فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"[٩]، ربط العسكري بين معنى البلاغة اصطلاحا ومعناها لغة من حيث إنها بلوغ وتبليغ، وذلك بأن يَبلغ المتكلم المعنى ويدركه جيدا، ثم يُبلغه المخاطب جيدا. ويمكننا أن نغير التسمية إلى وصول وإيصال، وهي العملية التي تسمى اليوم بعملية التواصل. وفي موضع آخر يقول معرفا البلاغة: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ... من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا".[١٠] ويقول أيضا: "البلاغة إيضاح المعنى وتحسين اللفظ"،[١١] ويقول أيضا: "البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة".[١٢] يجمع ما بين هذه التعاريف ضرورة أن يناسب الكلام المتلقي.

تستوقفنا عبارات العسكري حيث يقول متحدثا عن "تمام آلات البلاغة": "العلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها ورديئها ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام".[١٣] يجعل العسكري مراعاة المقام ضرورة لتحقيق تمام البلاغة. ونراه يقول: "وأحسنَ الذي قال: "لكل مقام مقال"، وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد"،[١٤] ثم يضرب مثالا على ذلك قول أبي علقمة السابق حينما سقط واجتمع حوله الناس: "ما لكم تكأكأتم عليَّ كأنكم قد تكأكأتم على ذي جنة،

افرنقعوا عني". فإن أبا علقمة لم يكلم عامة الناس الذين اجتمعوا حوله عند سقوطه بما يناسب عقولهم وثقافتهم.

أما ابن سنان الخفاجي فقد ذكر أن من شروط البلاغة وضوح الكلام شعراً كان أو نثراً، فهو يرى أنه "لا فرق بينهما"، والدليل الذي يذكره لإثبات صحة ما ذهب إليه هو "أن الكلام غير مقصود في ذاته، وإنما احتيج إليه ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعاني التي في نفوسهم، فإذا كانت الألفاظ غير دالة على المعاني ولا موضحة لها فقد رفض الغرض في أصل الكلام".[١٥] ومما يهمنا عند ابن سنان ونحن نتحدث عن التواصلية ما قاله عن أسباب غموض الكلام. جعل ابن سنان تلك الأسباب ستة،[١٦] الأول أن تكون الكلمة غريبة وحشية، والثاني أن تدل على الكلمة على معانٍ مشتركة مختلفة ككلمة "صدى" فهي تدل على العطش وعلى الطائر وعلى الصوت المعروف، أما الثالث فأن يكون في الكلام إيجاز مخلٌّ، والرابع أن يكون تركيب الكلام ضعيفاً، وأما الخامس فأن يكون المعنى غامضا، والسادس أن يكون المعنى بحاجة إلى مقدمات لفهمه وتصوّره والمخاطب لا يعلم تلك المقدمات. هذه هي الأسباب الستة، وإذا أمعنا النظر فيها فإننا نجدها أسباباً تتعلق بمعنى الكلمة المفردة تارةً وبمعنى الكلمات المركبة تارةً أخرى. ومن ثم أرى أن نعيد تقسيم هذه الأسباب إلى قسمين: ما يتعلق بمعنى اللفظة وما يتعلق بمعنى الكلام، على اعتبار أن الكلام يتكون من أكثر من كلمة ليفيد معنى. أما ما يتعلق بمعنى اللفظة فيشمل السبب الأول وهو ما سنسميه هنا غرابة اللفظة، والسببَ الثاني وهو ما سنسميه اشتراك اللفظة. وأما ما يتعلق بمعنى الكلام فإنه يشمل بقية الأسباب الأربعة التي سنسميها بـ: نقص التركيب وضعفه وغموضه واجتزائه. هذه الأسباب الستة في رأيي ترتبط ارتباطا وثيقا بالمخاطب/المرسَل إليه والسياق، وهو الأمر الذي يعد ركيزة أساسية في المنهج التواصلي الحديث. لنأخذ على سبيل المثال غرابة اللفظة، إن ما يُعَدُّ غريبا في نظر قومٍ هو غير غريب في نظر آخرين، فالسياق المعرفي الثقافي يلعب دوراً مهما هنا، ويتضح ذلك لو أخذنا مثلا ذائع الشهرة وهو قول أبي علقمة: "ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني؟" فإن متلقي هذا الكلام وجد فيه غرابة، فلم يفهم "تكأكأتم" و"كتكأكئكم" و"افرنقعوا" بينما كانت هذه الكلمات مفهومة لدى الأعرابي.

أما السكاكي في كتابه مفتاح العلوم فيفصل لنا المسألة في باب "ضبط معاقد علم المعاني" تفصيلا متقدما ويفرق بين لغة التخاطب العادية وبين اللغة الأدبية، فيقول: "مقتضى الحال عند المتكلم يتفاوت... فتارة تقتضي ما لا يفتقر في تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية وألفاظ كيف كانت ونظمٍ لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق، وهو الذي سميناه في علم النحو أصل المعنى".[١٧]فما أطلق عليه أصل المعنى هو الدلالات الوضعية المتمثلة في لغة التخاطب اليومية التي لا تحتاج إلى أكثر من قواعد النحو والمعاني المتواضع عليها لكي تخرج من كونها مجرد أصوات تشبه النعيق.

ومن ثم نرى أن البلاغيين القدماء فرقوا بين نوعين من التواصل: التواصل العادي المتمثل في لغة تخاطب الناس فيما بينهم لقضاء الحاجات، والتواصل الأدبي/الشعري. ولكي نرسم صورة كاملة حول مفهوم القدماء للغة والتواصل، يجدر بنا أن نسلط شيئا من الضوء على

النحاة القدماء. نجد أن هذه النظرة إلى اللغة وإلى كون التواصل وظيفة رئيسة من وظائفها ليست مقتصرة على البلاغيين القدماء، وإنما امتدت إلى النحاة، ولنأخذ مثالا عليهم رائدهم سيبويه.[١٨] يقسم سيبويه الكلام في باب الاستقامة والإحالة إلى مستقيم ومحال،[١٩] ثم يقسم المستقيم إلى ثلاثة أنواع والمحالَ إلى نوعين. أما المستقيم فنوعه الأول المستقيم الحسن، ويضرب سيبويه مثلاً على ذلك قولهم: "أتيتك أمسِ وسآتيك غداً"، والنوع الثاني المستقيم الكذب، ومثاله "حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماء البحر"، والنوع الثالث المستقيم القبيح، وهو المستقيم الوحيد الذي شرحه سيبويه، وكان شرحه مقتضباً لا يتجاوز عدة كلمات فقال: "أن تضع اللفظ في غير موضعه"، ومثاله "قد زيداً رأيت، وكي زيدٌ يأتيك". أما المحال فقد أطلق سيبويه على نوعه الأول اسم "المحال"، وهو ما يمكن أن أسميه هنا بـ "المحال المطلق"، وشرحه سيبويه بقوله: "أن تنقض أول كلامك بآخره"، ومثاله "أتيتك غداً، وسآتيك أمس". والنوع الثاني هو المحال الكذب، ومثاله: "سوف أشرب ماء البحر أمس". ولكي تكون الأنواع أكثر وضوحاً فإني أرسم هذه الخطاطة:

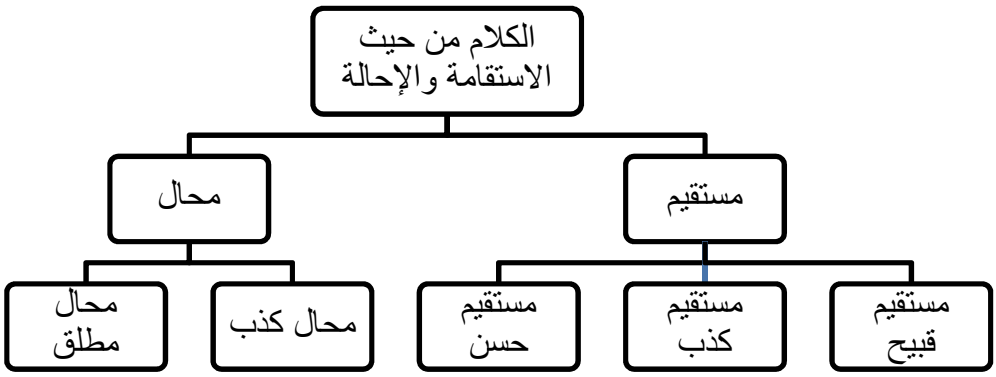

تقتصر نظرة سيبويه هنا على التواصل اللغوي في جانبيه النحوي والمعجمي الحقيقي، وهي نظرة صحيحة بهذا الاقتصار. أما إذا نظرنا إلى الجانب الأدبي فإن ما أطلق عليه سيبويه محالاً هو سمة بارزة من سمات التواصل الأدبي، كما لو قال قائل: "زرتُ البحرَ على عرشهِ" ومراده الحقيقي "زرتُ الملك على عرشه"، فإن كلامه محالٌ لدى النحاة مستقيمٌ لدى البلاغيين. لهذا نرى سيبويه في كتابه يجيز في الشعر ما لا يجوز في الأجناس الأخرى من الكلام،[٢٠] وهي إجازة اقتصرت على تناول الجانب النحوي كصرف ما لا ينصرف، وهو تناول يتناسب وطبيعة كتابه النحوية، لكنها تدل على أن النحاة يفرقون بين خصائص اللغة الشعرية وخصائص غيرها.

تعريف التواصل اللساني:

تتعدد تعريفات التواصل اللساني باختلاف أصحابها، غير أنها كلها تحتوي على قواسم مشتركة. وقد أغنانا عبد الجليل مرتاض في كتابه اللغة والتواصل عن سرد تلك التعريفات الكثيرة.[٢١] وإن كان لنا من تعريف إجرائي فإنه من الممكن أن نعرف التواصل بأنه فعل اجتماعي جماعي تحكمه قواعد اللغة. ومن ثم يمكن أن نجد عددا من الملامح المميزة للعملية التواصلية،[٢٢]

منها أن فعل التواصل جمعي يشمل جماعة من الناس، ومن هنا يكون فعلاً تفاعليّا، فثمة أكثر من طرف إنساني (متكلم ومخاطب على أقل تقدير) من ضمن الجماعة البشرية يتفاعلون فيما بينهم، وبناءً على ذلك يكون لا بد لفعل التواصل من زمان ومكان، كما أن فعل التواصل عمدي، بمعنى أن الإنسان يقوم به قصداً لا عبثا أو عشوائيةً. لهذا الفعل التواصلي أيضا قواعده التي تختلف باختلاف المجتمعات، ثم قد تختلف باختلاف الأشخاص داخل المجتمع. ويتضح من التعريف السابق أن لعملية التواصل قطبين رئيسين يتناوبان الأدوار في أحيان كثيرة، وهما المرسِل/المتكلم والمرسَل إليه/المخاطب، فالرسالة اللفظية بها تصدر من القطب الأول على هيئة رموز لتصل إلى مسامع القطب الثاني الذي يقوم بدوره بتحليل تلك الرموز، ثم يصدر هذا القطب الثاني رسالة لفظية على هيئة رموز ليتحول بهذا إلى مرسِلٍ/متكلم، فيقوم القطب الأول باستقبال هذه الرسالة وتحليل رموزها، فيتحول إلى مرسَلٍ إليه/مخاطب.

يُعَدّ رومان جاكبسون من أشهر من أسهم في تطوير نظرية التواصل وذلك من خلال التقسيم الذي اقترحه لعناصر التواصل التي سنتناولها بتفصيل أكثر لاحقاً. لكن قبل ذلك، يجدر بنا الوقوف عند بدايات ظهور نظريات التواصل. كان التواصل آنذاك كان مفهومها بسيطا، وخير ما يمثله تلك الدراسة القيمة التي نشرها هارولد دي لاسويل سنة ١٩٤٨ وأعيد نشرها لاحقا، شرح لاسويل مفهومه للتواصل ببساطة قائلا: "أيسر طريق لوصف الفعل التواصلي يكمن في الإجابة عن الأسئلة التالية: مَنْ [المتكلم]؟ ماذا يقول؟ بأية قناة؟ مَنْ يخاطب؟ وما أثر كلامه؟"[٢٣] ونلحظ في ما طرحه لاسويل أنه لم يتطرق للسنن، وهو عنصر مهم من عناصر التواصل. لكننا نتفهم هذا النقص الذي اعترى دراسة لاسويل في تلك العناصر، وذلك لأنها من أولى الدراسات من نوعها. لهذا نجد أن ويليام لِيس يرى أن ما طرحه لاسويل هو أقرب لنظرية أخرى، هي نظرية انتقال الرسالة.[٢٤]

لا بد لنا ونحن نستعرض رحلة تطور نظرية التواصل أن نقف مع ما طرحه فردينان دي سوسير. تناول دي سوسير التواصل من جهة نفسية فيزيولوجية،[٢٥] فبين أن التصور في بدايته هو ظاهرة نفسية، ثم تتلوها حركة فيزيولوجية تجري في عقل المتكلم، إذ ينقل العقل إلى جهاز النطق ذبذبة ممثلة لما يريد أن يعبر عنه، ثم تصدر الأصوات من فم المتكلم، ليتلقاها المستمع. هذه العملية نفسها، أو ما سماها دي سوير بـ "الدارة"،[٢٦] تحدث من جديد في عقل المستمع في حالة المحاورة بين الطرفين، فيصبح المستمع سابقا متحدثا حاليا.

هذا موجز ما طرحه دي سوسير، ويظهر في طرحه أنه يولي عنصري التواصل البشريين، المتكلم والمخاطب، أهمية خاصة. كما أن من جاء بعده من دراسي التواصل استفادوا مما طرحه دي سوسير وانطلقوا منه. ومن أشهر كارل بوهلر. جعل كارل بوهلر للتواصل ثلاث وظائف: وظيفة انفعالية ووظيفة إفهامية ووظيفة مرجعية، وجعل عناصر التواصل اللساني ثلاثةً، وهي المرسِل والمرسَل إليه والسياق.[٢٧] وهو تقسيم متواضع إلى حدٍّ ما، فهو وإن كان قد أحاط ببعض أهم وظائف اللغة وعناصر التواصل إلا أنه لم يرقَ إلى الإحاطة بها كلها، وهذا ما سيتضح جلياً في طرح رومان جاكبسون.

عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني لدى جاكبسون:

أحدث رومان جاكبسون في كتابه قضايا الشعرية تطويرا كبيرا في نظرية التواصل اللساني، واستدرك أموراً على بوهلر. ففيما يتعلق بوظائف التواصل، فقد رأينا أن بوهلر جعلها ثلاثاً بما يتناسب مع المتكلم والمخاطب والغائب، فالوظيفة الانفعالية ترتبط بما يجول في قلب المتكلم نفسه، والوظيفة الإفهامية ترتبط بالمخاطب، والوظيفة المرجعية ترتبط بالغائب ذاتاً كان أو غير ذات. لم يعترض جاكبسون على هذه الوظائف لكنه أضاف إليها وظيفة في غاية الأهمية، وهي الوظيفة الشعرية.[٢٨] وهي الوظيفة التي يمكن أن نفهم طبيعتها بوصف جاكبسون لها بأنها تحاول أن تجيب سؤالا واضحا ومحددا وهو: "ما الذي يجعل الكلام عملاً فنيا؟"[٢٩]

وهكذا يحاول جاكبسون التنظير لهذه الوظيفة، وبناءً على ذلك لم تعد العملية التواصلية عنده ذات ثلاثة عناصر فحسب كما رأيناها عند بوهلر، فأخذ يحلل العملية التواصلية تحليلا أكثر شمولية، يقول عن العملية التواصلية: "إن المرسِل يوجه رسالة إلى المرسَل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقاً تحيل عليه... قابلا لأن يدركه المرسَل إليه، وهو إما أن يكون لفظيا أو قابلا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك سننا مشتركا كلياً أو جزئيا بين المرسل والمرسل إليه... وتقتضي الرسالة أخيراً اتصالاً أي قناة فيزيقية وربطا نفسيا بين المرسِل والمرسَل إليه، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه".[٣٠] فانتهى به الأمر إلى جعل هذه العناصر ستة: المرسِل، والمرسَل إليه، والسنَن، والسياق، والقناة.

تُبنى عملية التواصل على ستة عناصر، هي كما يلي:

١. المرسِل:

هو عنصرٌ أساسي من عناصر العملية التواصلية، والمقصود بالمرسِل هو الشخص المتكلم الذي ينشئ الرسالة اللفظية ويبعثها إلى الطرف الثاني/المرسَل إليه لتحقيق هدفٍ ما، ومن هنا نال المرسِلُ أهميته، إذ لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال. ويمكن لنا هنا أن نحدد بعض الخصال التي يُفترض وجودها بالضرورة في المرسِل، منها قدرته المسبقة على تلقي الخطاب مقروءاً كان أو مسموعاً، وذلك لأن عجز الإنسان عن التلقي يعني عدم تشكل أي نوع من اللغة في ذهنه. ومنها أن يعرف المرسِل اللغة التي يفهمها المخاطب. ومنها أخيرا أن يتمتع هذا المرسِل بالقدرات الجسدية الكافية لإنشاء الرسالة اللغوية منطوقة كانت أو مكتوبة.

٢. المرسَل إليه:

المقصود بالمرسَل إليه هو الشخص الذي يتلقى الرسالة اللفظية التي أنشأها العنصر السابق/المرسِل، ويقوم بفكّ شفرتها، وهي العملية التي تسمى بـ decode. وهو عنصرٌ أساسي من عناصر العملية التواصلية كذلك، وذلك لأن العنصر السابق/المرسِل لا ينشئ رسالةً لفظية دون أن يقصد مرسَلاً إليه، معيَّناً كان أو غيرَ معيَّن. والذي أعنيه بالمعيَّن هو كون المرسَل إليه ذاتاً محددةً في ذهن المرسِل، كما لو كان المرسِلُ يتكلم بالهاتف مخاطبا ذاتاً محددة. أما غير المعيَّن فهو كون المرسَل إليه ليس ذاتاً محددةً في ذهن المتلقي، كما لو كان المرسِل كاتب مقال في صحيفة، فإنه لا يرسل كلامه إلى ذاتٍ محددة في ذهنه. ومن ثم فإن قصدية التحديد هي معيار الفصل بين المرسَل إليه المعيَّن وغير المعيَّن. وتقسيمي هذا يختلف عن تقسيم كاترين أوريكيوني

التي قسمت المرسَل إليه إلى مرسَل إليه مباشر ومرسَل إليه غير مباشر، وقد اعتمدت في تقسيمها على معيار البعدين الزماني والمكاني.[٣١]

ويمكن لنا هنا أن نرسم بعض الخصال التي يُفترض أن تكون بالضرورة في المرسَل إليه، وهي قريبة مما ذكرناه عند حديثنا عن المرسِل. منها قدرته الجسدية والذهنية على تلقي الخطاب مقروءاً كان أو مسموعاً. ومنها أن يعرف اللغة التي يستخدمها المرسِل في كلامه.

٣. الرسالة:

هي ما ينشئه المرسِل ليعبر عن المعاني التي تجول في خاطره للمرسَل إليه، ولها في التواصل اللساني صورتان: إما أن تكون منطوقة وإما أن تكون مكتوبة. وهي في صورتيها رموز لأشياء يريد المرسِل التعبير عنها. ومن ثم يكون هذا الرمز "دالاً" ويكون ذلك الشيء مدلولا. ويهمنا هنا أن لا ننسى أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، أي أنّ كلمة كـ "أسد" على سبيل المثال هي دالٌّ ومدلولها حيوان مفترس معروف له أربع أرجل، غير أن الدال، المتكون من حرف الألف والسين والدال، ليس له ارتباط بشكل المدلول وهو ذلك الحيوان أو بوظيفته. هذه طبيعة دلالة الرموز في الغالب، وإن كان هناك دوال ترتبط بحقيقة مدلولها من قريب أو بعيد كـ "زقزقة" للعصافير و"خرير" للماء، غير أنها قليلة.

٤. السياق:

المقصود به الملابسات والظروف التي أحاطت بالرسالة أو المرسِل والمرسَل إليه أثناء إنشاء المرسِل إياها، وهو عنصر معاون يساعد المرسَل إليه على فهم الرسالة حقَّ فهمها. وذلك لأنه متصل بثلاثة عناصر من عناصر التواصل، فيسهم في توجيه فهم الرسالة فهما سليما. والسياق هو ما سماه البلاغيون القدماء بـ "الحال" أحيانا أو بـ "المقام" أحياناً أخرى.

يدرك جاكبسون أن ثمة ألفاظا يختلف معناها باختلاف سياقها وباختلاف متلقيها، ويضرب على ذلك مثلا كلمة realism، بمعنى واقعية، لها معنيان: "المعنى الأول أن الواقعية تتمثل في كون مبدع العمل الأدبي قد استوحى عمله الأدبي من حقيقة حياتية محتملة، وأما المعنى الثاني فهو أن الواقعية تتحقق في أي عمل أدبي يستقبله المتلقي على أنه حقيقة حياتية".[٣٢]

٥. القناة:

المقصود بها الوسيلة التي استخدمها المرسِل في إنشاء رسالته وإرسالها للمرسَل إليه. والقناة في التواصل اللساني هي اللغة مكتوبة كانت أو ملفوظة. فإن كانت مكتوبة فإن الوصول إلى هذه اللغة يتم بواسطة البصر، وإن كانت ملفوظة فإن الوصول إلى اللغة يتم بواسطة السمع.

٦. السنن:

المقصود به القوانين المشتركة بين المرسِل والمرسَل إليه حتى تُفهَم الرسالة، ولن تتضح الرسالة لدى المرسَل إليه إن لم تكن تلك القوانين معلومة لديه. وذلك لأن الرسالة رموز يقوم المرسَل إليه بفك شفرتها على ضوء سنن مشترك بينه وبين منشئ الرسالة، يشمل قواعد النحو والصرف والمعاني المعجمية للكلمات. نجد جاكبسون وهايل في كتابهما Fundamentals of Language يبينان علاقة القوانين اللغوية بالرسالة اللغوية، يقولان:

"عندما يستقبل المخاطب رسالة بلغة يعرفها، فإنه يربط بالقوانين اللغوية التي بين يديه. تشمل هذه القوانين كل الخصائص اللغوية التي يمكن توظيفها [في فهم تلك الرسالة اللغوية]، وتشمل كل التراكيب المقبولة فيها..."[٣٣] فالمخاطب يقوم بعملية استحضار حتمي، بشكل إرادي أو غير إرادي، لسنن اللغة التي يعرفها عند تلقي الرسالة اللغوية مكتوبة كانت أو مسموعة. ومن ثم يكون المنهج التواصلي قد ضم القواعد النحوية التي ينصب اهتمامها على الجانب الشكلي من اللغة إلى جانب اللغة الاستعمالي والسياقي.

هذه عناصر التواصل اللغوي الستة عند جاكبسون. ويمكن لنا أن نعيد تقديمها، كما فعل جميل عبدالمجيد،[٣٤] بصورة أقرب إلى التراث البلاغي: متكلم ومخاطب ومقام ونص ولغة مكتوبة أو مسموعة وقواعد.

إرهاصات عناصر سيميولوجيا التواصل اللساني لدى أبي هلال العسكري:

نجد عند أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين إرهاصات واضحة لهذه العناصر الستة، غير أنها ترد في أماكن متفرقة في كتابه، تستقصيها هذه الدراسة وتعيد تصنيفها بحسب كل عنصر على حدة:

١. المرسِل:

نجد أن المرسل وهو ما يُعرف بالمتكلم في التراث البلاغي قد حظي بأهمية كبيرة في البلاغة، فلا يكاد عالم من علماء البلاغة يتجاهل دوره، ومما يضفي على المرسل أهمية خاصة كونه منشئ نية التواصل ابتداءً. لهذا نراه يحظى باهتمام كبير في تعريفات البلاغة التي أوردتها. أبو هلال العسكري في تعريفه للبلاغة يبين أن الدور الأكبر ملقى على عاتق المتكلم، فعليه أن ينجح في "إنهاء" وإيصاله إلى قلب السامع. والرماني يولي المتكلم أهمية كبيرة، ويكلفه بأمرين اثنين لا تتم البلاغة في نظره إلا بهما: إيصال المعنى إلى المخاطب وإخراجه بأحسن لفظ. يبين أبو هلال العسكري أن رتبة المتكلم في الهرم السياسي والاجتماعي تلعب دورا في عملية التواصل. فكلام من يكون في أعلى الهرم الاجتماعي كالخلفاء ينبغي أن يميل إلى "اختصار اللفظ وتأكيد المعنى" في حال الأمر والنهي، وأما في حال الشكر أو الثناء أو التوبيخ أو الذم فإن الكلام يطول ليفي بالمطلوب تحقيقه حتى "يرتاح قلب المطيع وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء ويأخذ نفسه بالارتداع".[٣٥] هكذا يكون الكلام إذا كان المرسِل/المتكلم في المنزلة العليا مرسِلاً إلى من هو دونه، أما إذا كان المرسِل/المتكلم يرسل رسالته إلى من هو أعلى منه منزلةً، كما لو كان المرسِل والياً من الولاة والمرسَل إليه خليفة من الخلفاء، فإن الكلام ينبغي أن يبتعد عن الإيجاز لأن المرسِل، وهو المرؤوس هنا، عليه أن يوصل رسالة واضحة للمرسَل إليه، وهو رئيسه، ليصف فيها المهام التي يقوم بها والمنجزات التي حققها "حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع وتمام الشرح والاستقصاء".[٣٦]

يجب على المتكلم أن يختار المناسبَ من الإيجاز والمساواة والإطناب. وجدير بالذكر هنا رأي جاكبسون في كتابه The Sound Shape of Language حول مسألة وضوح المعنى وعلاقته بالألفاظ إيجازا وإطنابا، فقال: "يميل المرءُ إلى اعتبار وضوح الخطاب جانباً إيجابيا، وهو أمر إيجابي بالفعل إذا نظرنا وفرة المعلومات المختلفة [التي يحويها خطاب ما]، ولكن

وضوح قد يحوي تكرارا، وهو تكرار في المعلومات المتضمنة في ذلك الخطاب، لا سيما إذا كان الموضوع مألوفاً عند المخاطب".[٣٧]

وتجدر بنا هنا الإشارة إلى أنه وإن كان المرسِل والمرسَل إليه، كما سنرى، عنصرين مهمين في عملية التواصل، غير أن المرسِل يلعب دوراً خاصا وحيويا في نجاح تلك العملية التواصلية، ولأهمية الدور الذي يلعبه المرسِل في عملية التواصل، نستطيع أن نتفهم ما قاله يوسف حمو آيت جعل المرسِل هو المسؤولَ "عن نجاح أو فشل عملية التواصل".[٣٨] وتكمن أهمية المرسل الخاصة في كونه منشئَ عملية التواصل ابتداءً، فيقع على عاتقه تحديد ما يناسب المرسَل إليه. ويدرك أبو هلال العسكري هذه الأهمية، لهذا نراه يوكل على المرسِل مهمة اختيار الألفاظ ابتداءً، ويؤكد عليها في أكثر من موضع.[٣٩]

٢. المرسَل إليه:

والمتأمل للتراث البلاغي يدرك بما لا يدع مجالاً للشك الأهمية العظيمة التي أولاها البلاغيون للمرسل إليه، أو ما كانوا يسمونه بـ "المخاطَب"، فلا تصل بلاغة الكلام إلى تمامها إلا إذا نجح الكلام في إيصال رسالته إلى المخاطَب وكان مناسباً لحاله. وليس ما يسمى بـ "الخروج عن مقتضى حال المخاطب" إلا دليلا على أهمية المخاطب عند البلاغيين الذين جعلوا لكل مخاطَب حالاً على البليغ أن يعرفها. وأوصوا المخاطب بحسن الاستماع كما نرى عند الجاحظ لدى حديثه في كتابه البيان والتبيين لدى حديثه عن آداب مجالسة العلماء فيقول: "فكن على أن تسمع أحرصَ منك على أن تقول، وتعلمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول".[٤٠] ولم يكن أبو هلال العسكري بمعزل عما ذهب إليه البلاغيون، فنرى إرهاصات هذا العنصر واضحة لديه، فهو يوكل المرسَل إليه بواجب الاستماع: "فإن المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب، والاستماع الحسن عون للبليغ على إفهام المعنى".[٤١]والمخاطب هنا هو المرسَل إليه، فيجعل أبو هلال العسكري حسن الاستماع حقاً من حقوق المرسِل على المرسَل إليه.

نجد أن المرسَل إليه/المخاطب يلعب دوراً في فهم مرامي المتكلم، ويتمثل ذلك في القرينة التي اشترطها البلاغيون في المجاز بنوعيه المطلق والاستعارة. المتأمل للقرينة يجد أنه قد جيء بها مساعدة للمتلقي الذي يُفترَض فيه أن يفهم ما تشير إليه هذه القرينة، فيفهم المعنى المراد. ونجد ذلك أيضا في الكناية، فإن نجاحها يعتمد على المتلقي اعتمادا كبيرا. كما أن البلاغيين قد أولوا مقتضى الحال أهمية كبيرة، والحال هو حال المخاطب هنا، لا حال المتكلم. لهذا نرى الجاحظ يؤكد أنه على المتكلم معرفة أحوال المخاطبين ومراعاتها: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات".[٤٢]

ردود فعل الدماغ البشري لدى المرسَل إليه حين تلقيه رسالة لغوية يمكن تقسيمها بحسب الدراسات الحديثة إلى مستويين:[٤٣] المستوى الأول: "مستوى عميق مجرد تحكمه قوانين منطقية ورياضية وقواعد سيكولوجية وقوانين دلالية عمامة". المستوى الثاني "مستوى سطحي

مادي محسوس تحكمه قوانين فيزيائية مرتبطة بالمكان والزمان." يقول أبو هلال العسكري: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن نقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا تجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب".[٤٤] ويورد أبو هلال العسكري شاهدا في غاية الأهمية للدلالة على ضرورة التفريق بين المخاطبين ومراعاة أحوالهم:[٤٥]

> "مكاتبة كلّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم. والشاهد عليه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته، فكتب: من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم فارس، سلامٌ على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافّة لينذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإثم المجوس عليك. فسهّل صلى الله عليه وسلم الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية. ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوّتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله. فكتب لوائل بن حجر الحضرمي: من محمد رسول الله إلى الأقيالِ العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التّبعة الشاة، والتّبعة لصاحبها، وفي السّيوبِ الخمس، لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار، ومن أجبى فقد أربَى، وكلُّ مسكر حرام. وكذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر صاحب دومة الجندل: من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله، إنّ لنا الضاحية من الضّحل والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسّلاح، ولكم الضّامنة من النّخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا تعدّ فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤدّون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه".

يؤكد أبو هلال العسكري على ضرورة مراعاة رتبة المخاطب، يقول موجهاً كلامه إلى مرسِل الكلام: عليك "أن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء... وبين من تكتب إليه "أنا أفعل كذا"، وبين من تكتب إليه "نحن نفعل كذا"، فـ "أنا" من كلام الإخوان والأشباه، و"نحن" من كلام الملوك"[٤٦]

٣. الرسالة:

أما الرسالة فإننا نجد البلاغيين القدماء مدركين لاعتباطية العلاقة بين الدال اللغوي والمدلول بالوجه الذي ألفيناه عند جاكبسون آنفا، ونراهم يشترطون عدم الغرابة وعدم التنافر، والتنافر على مستويين: تنافر حروف الكلمة الواحدة، وتنافر الكلمات. ولا يختلف أبو هلال العسكري عنهم، فكلمة مثل "هعخع" خرجت من كونها بليغة لفقدانها شرطا من شروط الفصاحة التي لا تتم البلاغة إلا بعد استيفاء شروطها، وهو شرط عدم غرابة الكلمة. وبيت مثل:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

خرج من كونه بليغا، وذلك لتنافر كلماته مجموعةً وإن كانت هذه الكلمات غير متنافرةٍ متفرقةً. ومن ثم فإن إرهاصات هذا العنصر بيِّنة لدى أبي هلال العسكري والتراث البلاغي العربي، لهذا نجد مراعاة لهذه المسائل اللسانية كالتنافر، فاللسان هو الذي يترجم الرسالة من ذهن الإنسان إلى واقعها الحقيقي، وهنا تكمن أهمية اللسان، فهو "لا يعبر عن الفكر ولا يشكل غطاءه فحسب، إنه الأداة التي من خلالها يتخذ هذا الفكر شكلا".[٤٧]

ولكن أبا هلال العسكري يضيف قولاً بالغ الأهمية، فيقول: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن نقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا تجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب".[٤٨] فالرسالة إذن، بكلماتها منفردةً أو مجموعة، عند أبي هلال لا ينبغي أن تسلم من العيوب التي تقدح في فصاحتها فحسب، وإنما يجب أيضاً أن تكون الرسالة من طبقة من طبقات الكلام مناسبة لطبقة الناس المخاطبين، فكما أن الناس طبقات، فالكلام طبقات أيضا. فالرسالة لا بد أن تنجح في "إفهام كلٍّ بقدر طاقتهم والحمل على قدر منازلهم".[٤٩]

٤. السياق:

أما السياق فهو مرتبط ببقية عناصر التواصل ارتباطا وثيقا، لهذا عرفه محمود أحمد نخلة بأنه "مجموع شروط إنتاج القول وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما".[٥٠] ولعل نظرة سريعة على تعريف علم المعاني تبين لنا اهتمامه بأن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال. يتسع أثر السياق ليشمل ظواهر لغوية وصوتية دقيقة، "المتكلم الأمريكي"، كما يقول جاكبسون وزميله هايل، "لا يفرق في نطقه بين حرف الدال (d) وحرف التاء (t)، [وذلك في الأوضاع العادية]، أما في حالة استشعار المتكلم الأمريكي لخطر التباس [الكلمات على المخاطب]، فإنه ينطق كل حرف منهما نطقا مختلفا يظهر فيه الفرق بينهما، فيقول: "هل هو السيد بدر" (بحرف الدال)، ويقول: "هل هو السيد بتر" (بحرف التاء)".[٥١]احتل السياق عند أبي هلال العسكري أهمية كبيرة،[٥٢] وذلك لارتباط السياق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومن ثمّ فإن مطابقة مقتضى الحال تنعكس على الرسالة نفسها، فيكون السياق والخطاب، أو "بنية السياق" و"بنية النص" كما يطلق عليهما صلاح فضل،[٥٣] متوائمين. فإذا كان الحال أن المرسَل إليه ضعيف العربية لكونها ليست لغته الأم على سبيل المثال فإن مراعاة ذلك الحال تقتضي تيسير كلمات الرسالة قدر الإمكان لكي تناسب "مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق"[٥٤] لهذا رأينا أن النبي الكريم قد اختار ألفاظا واضحة المعاني عند مراسلته كسرى. وكذلك عندما يكون السياق سياقَ أمرٍ ونهي من مرسِلٍ أعلى إلى مرسَلٍ إليه أدنى منزلةً، فإن مراعاة ما يقتضيه السياق تتطلب بأن تكون الرسالة موجزةً، بخلاف سياق الشكر والثناء وإن كان المرسِل والمرسَل إليه لم يختلفا، فإن الرسالة فيه تكون مسهبة لكي تفي بما يتطلبه السياق. فإذا تغير السياق، "يتغير القول والمفهوم، ويكون بذلك موافقا للسياق الجديد، فلكل سياق قول".[٥٥]

كما أن أهمية السياق في نظر أبي هلال العسكري تظهر عندما تكون الرسالة من مرسِلٍ أدنى إلى مرسَلٍ إليه أعلى منزلةً، فإن السياق يلعب دورا في تحديد أسلوب الرسالة، فالأصل فيها

أن تكون صريحة الأسلوب مع سهولة الألفاظ ووضوح المعاني، غير أنه إذا كان المرسِل في سياق طلب الحاجات والمعونة أو في سياق الاعتذار، فإن مراعاة مقتضى الحال تتطلب في السياق الأول العزوفَ عن التصريح واللجوء إلى التلميح، وتتطلب في السياق الثاني إيراد العذر المقنع.

٥. القناة:

المراد بها عند جاكبسون اللغة باعتبارها وسيلة التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه. وقد خلا التراث البلاغي عامةً وما قدمه لنا أبو هلال العسكري خاصةً من هذا المصطلح، غير أننا نجد ما يطلقون عليه "الكلام" وهو ما سماه جاكبسون بـ "القناة". تطرق البلاغيون القدماء بشكل عام إلى الكلام ذاكرين العيوب النطقية للقناة/للكلام التي يجب أن تسلم القناة/الكلام منها لتنجح عملية التواصل. وقبل أن نسلط الضوء على تناول أبي هلال العسكري للقناة أن نرسم حداً فاصلا بين عنصر القناة الذي نحن بصدده الآن وبين عنصر السنن التالي، أما عنصر القناة فإنه يتركز حول سلامة النطق، وأما عنصر السنن فإنه يتركز عيوب الكلام من حيث قواعده.

تناول أبو هلال العسكري القناة في الفصل الأول من الباب الأول تناولاً سريعا موجزا إلا أنه فاصل، فقد قرر أن البلاغة لا تتم إلا بالفصاحة، ثم أن الفصاحة لا تتم إلا بسلامة نطق الحروف، فإن "الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف".[٥٦] ومن ثم يتبين أن أبا هلال العسكري يخرج النطق من دائرة الفصاحة إذا كان في القناة خلل كالتمتمة واللثغ.

لأبي هلال العسكري إشارة تنم عن فهم متقدم لطبيعة القناة ما بين مقروءة ومسموعة. فنراه يفرق بين كتابة الإنسان ونطقه، فمن "يعبر عن الحمار بالهمار" نطقاً ولكنه يكتبها صحيحة بالحاء، فهو أعجم اللسان فصيح الكتابة.[٥٧] كما أن أبا هلال العسكري يتطرق إلى المعاني وعلاقتها بالقناة، فيفرق بين حالتين للمعاني، الحالة الأولى هي ما قبل التعبير عنها بالقناة/الألفاظ مقروءة أو مسموعة، والحالة الثانية هي ما بعد التعبير عنها، فيقول: "ومن الناس من إذا خلا بنفسه وأمل فكره أتى بالبيان العجيب والكلام البديع المصيب، واستخرج المعنى الرائق وجاء باللفظ الرائع، وإذا حاور وناظر قصَّر وتأخر... ومنهم من إذا كتب وأملى أخل وتخلف ومنهم من إذا أملى برَّز وإذا حاور أو كتب قصر، ومنهم من إذا كتب أحسن وإذا حاور وأملى أساء، ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات، ومنهم من يسيء فيها كلها".[٥٨]تكمن أهمية نص أبي هلال هنا في دلالته على إدراك أبي هلال للقناة، ويتجلى ذلك في تمييزه الواضح بين المعاني وهي نفس الإنسان وبين المعاني وقد ارتبطت بقناة مقروءة أو مسموعة.

٦. السنن:

أما على صعيد السنن فقد اشترط البلاغيون براءة الكلام من ضعف التأليف والتعقيد، والتعقيد على نوعين: تعقيد لفظي وتعقيد معنوي. ولم يخرج أبو هلال العسكري من هذه الدائرة، فنراه يقرر ضرورة تجنب إيراد حروف الجر وضمائرها متتابعات، وهو ما قد أطلق عليه "حروف الصلات والرباطات" بشكل متوالٍ، ومثال ذلك: "به له منه".[٥٩]وذلك لتجنب ما قد يسببه توالي حروف الصلات من تعقيد، وأورد العسكري مثالا على ذلك قول المتنبي:

ويسعدني في غمرةٍ بعد غمرة سَبوحٌ له منها عليها شواهدُ

فقد جاءت هذه الحروف: "له منها عليها" متوالية.

يقرر أبو هلال العسكري في كتابه ضرورة حسن تأليف الكلام شعرا كان أو نثرا،[٦٠] وذلك ليكون المعنى أكثر وضوحا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن حسن التأليف نقيض ضعف التأليف، لا خطأ التأليف. ومن ثم يمكننا أن نقسم التأليف إلى مستويات ثلاثة: الأول خطأ التأليف، وهو مستوىً مرفوض، وأما الثاني فهو ضعف التأليف، وهو مستوى مستكره، وأما الثالث فهو حسن التأليف، وهو مستوى مرغوب. يضرب أبو هلال العسكري مثالا على ضعف التأليف بيت الفرزدق الشهير:

تعالَ فإنْ عاهدتني لا تخونني نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ

يتجلى ضعف التأليف هنا في الفصل بين الاسم الموصول "مَنْ" وجملته "يصطحبان" بالنداء "يا ذئب".

انفرد أبو هلال العسكري بتناوله بعضَ المسائل الدقيقة المتعلقة بالسنن، كاستخدام "أما بعد"،[٦١] وهو الأمر الذي يدل على وعيه بأهمية السنن لنجاح عملية التواصل، فبعد أن يبين أن بعض أهل زمانه من الأدباء لم يعودوا يستخدمون "أما بعد" في كلامهم، يقرر أبو هلال العسكري أن تركها أو استخدامها أمر لا يخالف السنن، حيث إن من استخدمها متابعةً لسنة قديمة "فهو حسن"، ومن تركها لكي يكون كلامه موافقا لما يراه بعض أهل زمانه "فلم يكن ضائرا".[٦٢]

يظهر لنا في ختام هذه الدراسة أن أبا هلال العسكري في كتابه الصناعتين قد أشار في مواضع متفرقة إلى ما يمكن أن نعده إرهاصات أولية لعناصر جاكبسون الستة لسيميولوجيا التواصل اللغوي، وهي: المرسِل، والمرسَل إليه، والسنَن، والسياق، والقناة. وهو الأمر الذي نعده تجلياً للمرجعية الحضارية العربية في تلك العناصر. ووجهت الدراسة الانتباه إلى اختلاف المصطلحات لدى كل من جاكبسون من جهة وأبي هلال العسكري من جهة أخرى، كما رأينا عند تناولنا لعنصر المرسِل، الذي يطلق عليه أبو هلال العسكري المتكلم. كما أننا نرى انعدام المصطلح لدى أبي هلال العسكري أحيانا، وقد تجلى ذلك عند تناولنا لعنصر القناة، فلم نجد عند أبي هلال العسكري مصطلحا بديلا، وإنما رأينا حديثه عن عنصر القناة يندرج تحت "الكلام". وقد نجحت الدراسة في جمع إرهاصات تلك العناصر لدى أبي هلال من مواضعها المتفرقة وأعادت تصنيفها بحسب كل عنصر على حدة.

الهوامش

[١] رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي،الدار البيضاء: دار توبقال، ط:١، ١٩٩٣، ص ٢٤.

[٢] وائل بركات، "السيميولوجيا بقراءة رولان بارت"، مجلة جامعة دمشق، مجلد ١٨، عدد ٢، ٢٠٠٢، ص ٥٨.

[٣] سعيد بنكراد، "إستراتيجيات التواصل"، مجلة علامات، مكناس، العدد ٢١، ٢٠٠٤، ص ٩.

[٤] عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:١، ٢٠٠٤، ص ٦.

[٥] النص بلغته الأصلية:

Communication cannot be studied in isolation; it must be analyzed in terms of its effect of people's lives.

John J. Gumperz,*Language and Social Identity*,(Cambridge University Press, 1983, p 1.

[٦] عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط:٧، ١٩٩٨، ص ١: ٧٥-٧٦.

[٧] الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، القاهرة: دار المعارف، ب ط، ١٩٦٨، ص ٧٥.

[٨] أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، القاهرة: مطبعة محمود بك، ط:١، ١٩٠١، ص ٨.

[٩] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٦.

[١٠] السابق، ص ٨.

[١١] السابق، ص ١٠.

[١٢] السابق، ص ١٠.

[١٣] السابق، ص ١٥.

[١٤] السابق، ص ١٩-٢٠.

[١٥] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، بيروت: دار الكتب العلمية: ١٩٨٢، ب ط، ص ٢٢١.

[١٦] السابق، ص ٢٢١-٢٢٢.

[١٧] يوسف بن محمد السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:١، ٢٠٠٠، ص ٢٥١.

[١٨] وكذلك ابن جني على سبيل المثال، فقد جعل التواصل أهم خصائص اللغة عندما عرف اللغة قائلا: إنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". فالتعبير عن الأغراض هو تواصل بين شخص وآخر. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد النجار، لبنان: دار الهدى، ط:١، ١٩٥٢، ص ١٥.

[١٩] سيبويه عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط:٣، ١٩٨٨، ص ١: ٢٥-٢٦.

[٢٠] السابق، ج ١: ٢٦.

[٢١] عبد الجليل مرتاض. اللغة والتواصل، الجزائر: دار هومة، ط:١، ٢٠٠٣، ص ٣٧-٣٨.

[٢٢] عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص ١٠. ويوسف آيت حمو، "من التواصل إلى التواصل الشعبي"، مجلة فكر ونقد، الرباط المغرب، السنة الرابعة العدد ٣٦، فبراير ٢٠٠١، ص ٩٨.

B. J. Haslett,*Communication: Strategic Action in Context*, Jew Jersy: LEA, 1987, p 4; and John J. Gumperz,*Discourse Strategies*, Cambridge University Press, 1982, p 1

[٢٣] النص بلغته الأصلية وبتنسيقه الأصلي:

Convenient way to describe an act of communication is to answer the following questions:

Who
Says What
In which Channel
To Whom
With what effect?

Harold D. Lasswell, "The Structure and Function of Communication in Society," *IletisimKuramveArashrmaDergisi*, issue 24, Spring 2007, p. 216.

[24] The Message Transmission Theory هي ما أسماها بالإنجليزية:

William Leiss, "Risk Communication and Public Knowledge," in *Communication Theory Today,* edited by David Crowley and David Mitchell, Stanford: Stanford University Press, 1994, p. 128.

[٢٥] فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، الجزائر: المؤسسة الجزائرية، ب ط، ١٩٨٦، ص ٢٣.

[٢٦] السابق، ص ٢٣.

[٢٧] جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، مراجعة محمد بريري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط:١، ٢٠٠٣، ص ٥٢.

[٢٨] رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، الدار البيضاء: توبقال، ط:١، ١٩٨٨، ص ٣٠.

[٢٩] النص بلغته الأصلية:

What makes a verbal message a work of art?

Roman Jakobson, "Closing Statement: Linguistics and Poetics", in *Style in Language*, ed. By Thomas A. Sebeok, New York: John Wiley and Sons, 1960, p. 350.

[٣٠] جاكبسون، قضايا الشعرية، ص ٢٧.

[٣١]CaterineOrechioni, *la Conversation*, Paris: Seuil, 1996, p. 30.

[٣٢] النص بلغته الأصلية:

Realism may refer to the aspiration and intent of the author; i.e., a work is understood to be realistic if it is conceived by its author as a display of

verisimilitude, as true to life (meaning A). A work may be called realistic if I, the person judging it, perceive it as true to life (meaning B).
Roman Jakobson, *Language in Literature*,USA: Belknap, 1990, p. 20.

[٣٣] النص بلغته الأصلية:

If the listener receives a message in a language he knows, he correlates it with the code at hand. This code includes all the distinctive features to be manipulated, all their admissible combinations into bundles of concurrent features
Roman Jakobson, Moris Halle, *Fundamentals of Language,* New York: Mouton de Gruyter, 2002, p. 15.

[٣٤] جميل عبدالمجيد، البلاغة والاتصال، مصر: دار غريب للطباعة والنشر، ط:١، ٢٠٠٠، ص ٢٦.
[٣٥] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١١٧.
[٣٦]السابق، ص ١١٧.
[٣٧] النص بلغته الأصلية:

One is apt to designate the explicit variety of language as the optimal facet of the code. It is in fact optimal which respect to the plenitude of informational distinctions; however, on the other hand, explicitness risks carrying too much redundant information in the flow of speech when the topic of discourse is familiar to the interlocutors.
Jakobson, *the Sound Shape of Language*, p. 11.

[٣٨]حمو، "من التواصل إلى التواصل الشعبي"، ص ٩٧.
[٣٩] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٤ وص ٢١.
[٤٠] الجاحظ، البيان والتبيين، ٢: ٢٩١.
[٤١] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٢.
[٤٢] الجاحظ، البيان والتبيين، ص ١: ١٣٨-١٣٩.
[٤٣]حمو، "من التواصل إلى التواصل الشعبي"، ص ٩٨.
[٤٤] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٢١.
[٤٥]السابق، ص ١١٥-١١٦.
[٤٦]السابق، ص ١١٨.
[٤٧] سعيد بنكراد، "إستراتيجيات التواصل"، ص ٩.
[٤٨] السابق، ص ٢١.
[٤٩]السابق، ص ١٤.
[٥٠]محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ط:١، ٢٠٠٢، ص ١٤
[٥١] النص بلغته الأصلية:

For many American English speakers /t/ and /d/ are ordinarily not distinguished between a stressed and unstressed vowel but can be produced distinctively when there is danger of a confusing homonymity: “Is it Mr. Bitter or Bidder?”
Jakobson, *Fundamentals of Language*, p. 16.

[٥٢] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١١٥-١١٨.
[٥٣] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة: الكويت، ط:١، ١٩٩٢، ص ٢١.
[٥٤] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١١٥.
[٥٥] سحالية عبدالحكيم، "التداولية"، مجلة المخبر، العدد الخامس، مارس ٢٠٠٩، ص ٩٠.
[٥٦] العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٧.
[٥٧] السابق، ص ٧.
[٥٨] السابق، ص ١٥.
[٥٩] السابق، ص ١١٩.
[٦٠] السابق، ص ١٢٠.
[٦١] السابق، ص ١١٩.
[٦٢] السابق، ص ١١٩.

المصادر والمراجع بالعربية

ابن جني، أبو الفتح عثمان، ١٩٥٢: الخصائص، تحقيق محمد النجار، دار الهدى، لبنان، ط:١.
ابن سنان الخفاجي، ١٩٨٢: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ط.
بارت، رولان، ١٩٩٣: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط:١.
بركات، وائل، ٢٠٠٢: "السيميولوجيا بقراءة رولان بارت"، مجلة جامعة دمشق، دمشق، ٢: ٥٥-٧٦.
برنس، جيرالد، ٢٠٠٣: المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، مراجعة محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط:١.
بنكراد، سعيد، ٢٠٠٤: "إستراتيجيات التواصل"، مجلة علامات، جدة، ٢١: ٧-٢١.
الجاحظ، عمرو بن بحر، ١٩٩٨: البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ٤ أجزاء، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط:٧.
جاكبسون، رومان. ١٩٨٨: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون،توبقال، الدار البيضاء،ط:١.
حمو، يوسف آيت، ٢٠٠١:"من التواصل إلى التواصل الشعبي"،مجلة فكر ونقد، المغرب، ٣٦: ٩١-١٠٨.
دي سوسير، فردينان، ١٩٨٦: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، المؤسسة الجزائرية، الجزائر،ب ط.
الرماني، ١٩٦٨: النكت في إعجاز القرآن،تحقيق محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة،ب ط.

السكاكي، يوسف بن محمد، ٢٠٠٠: مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١.
سيبويه، عمرو بن عثمان، ١٩٨٨: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط:٣.
الشهري، عبد الهادي بن ظافر، ٢٠٠٤: إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط:١.
عبد الحكيم، سحالية، ٢٠٠٩: "التداولية"، مجلة المخبر، الجزائر، ٥: ٨٧-١١٠.
عبد المجيد، جميل، ٢٠٠٠: البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، ط:١.
العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، ١٩٠١: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك، القاهرة، ط:١.
فضل، صلاح، ١٩٩٢: الخطاب وعلم النص،عالم المعرفة، الكويت، ط:١.
مرتاض، عبد الجليل، ٢٠٠٣: اللغة والتواصل، دار هومة، الجزائر، ط:١.
مهيبل، عمر، ٢٠٠٥: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم، بيروت،ط:١.
نخلة، محمود أحمد. ٢٠٠٢: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط:١.

المصادر والمراجع الأجنبية

Gumperz, John J, 1982: Discourse Strategies, Cambridge University Press.
Gumperz, John J, 1983: Language and Social Identity, Cambridge University Press.
Haslett, B. J, 1987: Communication: Strategic Action in Context, New Jersy,LEA.
Jakobson, Roman, 1960: "Closing Statement: Linguistics and Poetics", in *Style in Language*, ed. By Thomas A. Sebeok, New York: John Wiley and Sons: 350-377.
—, 1990: Language in Literature, USA, Belknap.
—, Halle, Moris, 2002:*Fundamentals of Language*, New York, Mouton de Gruyter.
—, 2002:*The Sound Shape of Language,*New York, Mouton de Gruyter.
Lasswell, Harold D, 2007: "The Structure and Function of Communication in Society," *IletisimKuramveArashrmaDergisi* 24: 215-228.
Leiss, William, 1994: "Risk Communication and Public Knowledge," in *Communication Theory Today,* edited by David Crowley and David Mitchell. Stanford: Stanford University Press: 127-139.
Orechioni, Caterine, 1996: La Conversation,Seuil, Paris.